مُقَدِّمَة

بقلم/ حمد بن عبدالله القاضي(*)

الحياة قصيرة جداً :

والرائعون الموفقون هم الذين أدركوا هذه "الحقيقة" الثابتة عملاً لا تنظيراً.. وبالتالي سعوا وحرصوا الا يغادروا هذه الحياة الا وقد كسبوا الخير الوافر في الأخرى التي قدموا إليها، والذكر العطر في الدنيا التي ودعوها.

وبعد : لقد سعدت بقراءة هذا الكتاب القيم لأخي الباحث " **الأستاذ: عبد المحسن بن علي المطلق** "، والذي انطلق فيه من تلك الحقيقة التي أشرت إليها فضلاً عن (رسالة الوفاء) التي كانت أحد أهداف كتابه هذا، وفي كتابه السابق في تأبين والده – رحمه الله –

إن هذا الكتاب ليس " كلمات رثائية " فقط، ولكنه احتوى على فصول بالغة الفائدة تناول فيهاالكاتب تجارب وأقوال السابقين من الراحلين إلى الحياة الأخرى ومن مودعيهم والشجيين على فراقهم في هذه الدنيا، وقد شدني المؤلف كثيراً بإتكائه على تراثنا الفكري والشعري ، فأنت لا تقرأ فكرة أو فصلاً، إلا وجدته عضدها بحكمة صادقة، أو تجربة عميقة، أو بيت شعر حكيم.

سيجد القارىء في هذا الكتاب نفحة عزاء لمن تأمل فيه واستوعب مضامينه، فهو ما بين دعوة إلى الصبر، إلى بلورة سير راحلين، إلى حديث ممتع عن الخلود والموت .. الخ.

(*) عضو مجلس الشورى - رئيس تحرير (المجلة العربية)-

ولكم كان رثاء المؤلف مؤثراً: أسلوباً ومضموناً وهو يرثى أعلاماً راحلين: الشيخ ابن باز، والشيخ ابن عثيمين، والشيخ علي الطنطاوي، والشيخ عبدالله المطوع، والشيخ عثمان الصالح، وغيرهم رحمهم الله جميعاً، فضلاً عن رثائه لوالدته رحمها الله ووالدتي.

أمر آخر .. فقد لاحظت أن المؤلف الكريم لا يكتفي بتجسيد عاطفته نحو هؤلاء الراحلين لكنه يمزج ذلك بمواقف وقصص حدثت له مع هؤلاء الغالين الذين رحلوا إلى جوار ربهم، ومثل هذه القصص تكشف عن جوانب مهمة وجديدة في شخصيات هؤلاء الذين تم رثاؤهم رحمهم الله.

ختاماً : أتوقف عند أنموذج واحد مما أورده المؤلف من تجارب الراحلين وذلك في فصل "التأبين" ، وهو تجربة الخليفة عمر بن عبد العزيز ﷺ التي أوردها في ص٣٠، فقد قال مسلمة بن عبد الملك لإبن عمه الخليفة عمر بن عبد العزيز : " لقد أبقيت لنا في الصالحين ذكرى" ، فما كان جواب الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي عرف حقيقة الحياة، وذاق أبلغ درجات رحيقها وسلطانها : " إن لي نفس تواقه، لم تتق إلى منزلة إلا تاقت إلى ما هي أرفع منها حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة بالدنيا، يعني الخلافة، وإنها اليوم تواقة إلى الجنة " . رحم الله عمر بن عبد العزيز.

أما قبل :

فذلك هو الطموح الذي تتضاءل عنده ومعه كل مطامح الدنيا ومطامعها، وأحسب أن ذلك ما أدركه واستوعبه من رثاهم هذا السفر " النفيس"، فأبقوا ذكراً طيباً، وعلماً نافعاً.

الحـق[*]:

إنّ شخصَ (أبي بدرٍ) والذي أحسبه - مع شريحة كبيرة ممن عرفه- أديب النفس والدرس: غالٍ، ورُوحه الجميلة وكذا لطفه الفائض يُغليه أكثر.

فهو كما قال عنه أحدهم[٢]: (ليس بدكتور، لكنه استاذ دكاتره)[٣]، فهو متواضع.. لا تصنّع، لكنها جبلّة تُحسّها ولا تتوجّسها.

فهل أعطفه أو أستطعفه، ليكتب، أو يُستكتب؟، وأتشفّع إليه (بما عُرف عنه) من شاخصة للوفاء ظاهره[٤]، والتي تلُفتنا، وتذكّرنا كلما غفلنا إثر عدونا في طريق الحياة.. تسلياً بها.

.. ليمنح كُتيّبي هذا ديباجةً (رومنسية)[٥].

من يَراعه، علّها -- يا أديبنا (حمد)- .. لا تسويقاً للكتاب ، بل (باب) قبولٍ من لدن القارىء والذي مما يعرفه عنك :

أنّك لا تكتب إلا لمن يستحق، وعما يستحق، وبما يستحق، .. لا مراءً لديك.. ولا تزيفا من قِبلك..

(*) هي (رسالة) أرفقتها مع (صورة) للكتاب إليه ليضع (المقدّمة)، لكني أثبتها هنا.. ومن ضمن سجلاته، لأن المرسل إليه حقيقٌ بما في ثناياها - .. المؤلف - ، (مع إيضاح) هامش (١) ص٤١-

(٢) بـ (ثلاثية) محمد المشوّح – في تكريم (د. حسن الهويمل)-.. وبالمناسب: حين سُئل الإمام الشنقيطي عن شهادته، بحضور أحد العلماء الذي انبراء للرد : إنه - أي (الشنقيطي)-: هو الذي يعطي الشهادات!

(٣) أو كما يُقلد بالجامعة بمرتبة (مُعيد).

(٤) وانظر في هامش (١) ص١١٦. وفي الهامش ٧ ص ٢٦٧ معنى آخر.
ومن قبل مادتكم: (وبرّ بوالدتي) ، شهادة.. لا تغيب.

(٥) كتلك التي مهرها الأديب عبد الرحمن السدحان بقوله - عن قصة علقها- : فكنت أنتبذ معها مكاناً قصياً في منزل والدي رحمه الله أيام الإجازات أسامرها ليلاً، وأنادمها نهاراً، وأحلّق مع حروف صاحبها حتى يدركني الكرى، فأسترخي إلى حين، ثم أعيد الكرّة مرات!

وشيء آخر - بعد رضا الله - خدمةً للقلم .. الذي سَنُسأل عمّ سطّرنا بهِ، قال تعالى: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ ﴾ (القلم ١-١) . وفي الحديث: { وعن علمه، وماذا عمل به.. ألخ }.

فشكري إن فعلت أجزل، وشكري إن اعتذرت أكمل! فـ.. الأُولى رجائي، والثانية يتبعها عذري.. لا عذلي...

أخوكم المحُب :

عبدالمحسن

١٤٢٧/١١/٢٧هـ

"الخلود"

مدخل :

الحمدُ لِلهِ الذي قدّر الموت.. ليكون محطة رحلة المرء في الأولى، وأجلٌ ينتهي إليه فيها.. فينقله للأخرى[١]، والصلاة والسلام على الذي خُيِّر فآثر ما عند الله على زائلٍ يبلى[٢]، .. فكان في هذا قدوة لأُولي النُّهى- ممن آدرك بإيمانه ويقينه صواب هذا المنحى -

الدوام[٣] لِلهِ الواحد القهار، والإنسان ليس له مجال في مدّ عمره أو تأخير موعد شخوصه ومغادرته من الدنيا التي كتب رب الخلائق على أهلها الفناء، وإن كنّا نرى البعض وحينما يشعرون بدنو أجل أو احتضار (مريضهم) يولون ويبذلون ما في وسعهم باستدعاء الطبيب علّه يعمل شيئاً ما.. يدفع ما أحسوا به وأضمروه بين جوانحهم حياله، ولكن مهما حاولوا الأخذ بكل شيء من الأسباب لتمنحه فسحة من العمر الذي قُدّر وسُجّل في جبينه منذ الأزل، فإن تلك الأسباب لا تجديه أبداً: كذلك قدّر الله في محكم كتابه : ﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾(يونس ٤٩)

(١) .. كما قال عز وجلّ: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الدخان : ٥٦)

(٢) - .. وقد حثّه مولاه لهذا بـ : ﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (الضحى ٤) -

(٣) وقد صُدّر التشهد (في الصلاة) بـ : التحيات لِلهِ، والتحيّة هي (الخلود).

قال أمرىء القيس : **من كل ما نال الفتى نلته إلا التحية** – أي : الخلود-

(قبـــس) :

قال تعالى : ﴿ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الزمر ٣٠) وقال سبحانه: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ (١) وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأنبياء ٣٤) و ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنبياء : ٣٥]

وقال ﷺ - مُجيباً رهطاً سألوه : متى القيامة ؟، فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: { إن يعش هذا لا يُدركه الهرم، حتى تقوم عليكم قيامتكم}. رواه البخاري ومسلم.

وقال جبريل لرسولنا عليهما السلام : "يا مُحمد! عش ما شئت فإنك ميّت .. ألخ" ، قال الشاعر .. عنها :

ثمانيةٌ لابدّ منها على الفتى ... ولابدّ أن تجري عليه الثمانية

سرورٌ وهمٌّ واجتماعٌ و إفرقةٌ ... وعسرٌ ويسرٌ، ثم سُقمٌ وعافية

ومعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ أي: ستموت، يُقال : مات الإنسان ، ونفقت الدابة وتنبّل البعير، .. ومات تأتي كناية: عن الأرض إذا كانت لا ينتفع بها أحد ، وأما: ﴿ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ ف ميتون مختص بجمع الذكور ،وجمع الآناث ميّتات- وأتى التذكير .. تغليبا-

وما (حالنا)- وقد ﴿ .. خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (النساء ٢٨) - عندها .. إلا :

كالشمع يبكي وما يدري أعَبْرَتُهُ ... من حُرقة النار أم من فرقة العسل؟

فلا نُدرك إلا قليلاً : هل (البكاء) على الميتِ أم على المعزّى[٣] فيه !؟ كما أباح بهذا (ديك الجن) :

لو كان يدري (الميت) ماذا بعده ... بالحي منه، بكى له في قبره!

لكن من فضل الله أن منَّ علينا بنعمة (النسيان) .. والسلوى!

وإلا لما هنئت نفسٌ بعيش، قال نصر بن يسار: (كل شيء يبدو صغيراً ثم يكبر، إلا "المصيبة" ، .. فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر).

---

(١).. قال (د. طارق السويدان) موضحاً: أو هو ما قد يُستأنس بإيراده: " الميّت- بتشديد الياء – هو الذي فيه روحه، ولكنه سوف يموت ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الزمر ٣٠). وميت بـ تخفيف (الياء): مات وخرجت روحه، كما قال تعالى ﴿ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴿١٢﴾ ﴾(الحجرات ١٢) ".

(٢) إيضاح : النفس آية كبيرة من آيات الله، وقد أقسم بها سبحانه بـ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ (الشمس : ٧) ، قال السعدي في تفسير لها – ص ٩٢٦- : " يحتمل أن المراد نفس سائر المخلوقات الحيوانية كما يؤيد هذا العموم، ويحتمل أن المراد بالاقسام بنفس الإنسان المكلف ، بدليل ما يأتي بعد – أي من الآيات في السورة نفسها-، ثم قال .. عنها معرفا: إنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل – الحركة- والتغير والتأثر والانفعالات النفسية.. من الهم ، والإرادة، والقصد، والحب والبغض، وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على هذا الوجه آيه من آيات الله العظيمة".
فالنفس تسمى بهذا.. إذا فيها الروح – كناية عن خروج ودخول (النفس): الهواء إليها-، وعندما تخرج تسمى جسدا، وعندما ينقص الجسد أحد أعضاء يسمى جسما.

(٣) .. كما سيأتي بسطا - في ص-٩٢-

وبعـــد ..

كـــم مـــن شـــقي ميّـــت بحياتـــه! ولكـــم أُنـــاس في (الثـــرى) أحيـــاءُ!

إن ذوي النُّهى والهمم، والصبَر والجلد.. علموا ممن سبق أن الخلود (الحقيقي): ليس بطول البقاء في الحياة - انظر ص٦٣-!

.. فكم (هرمٌ) لا يعرفهُ إلا قلة مِمن حوله!

وكم مِمن مات - وقد بلغ من العمر عتيا- لا يذكره إلا ثلّة من المقربين منه!، فهو .. وعلى إمتداد عُمره/ لم يتعدّ قارعة الحياة.. الخ! .

بل أجلى من هذا تعوّذه ﷺ من (الهرم) [1] بعد .. أن ﴿لَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۝﴾ (الحج ٥..) - وهذا لا يعني الذمّ المطلق لهذا، وقد فُنّد فهم هذا.. حديث: {خيركم من طال عمره وحسن عمله} رواه الترمذي، وفي السيرة:

أن اثنان من قضاعة، استُشهد أحدُهم، وبعد عام مات الآخر، فرُأي أن الثاني دخل الجنة قبله، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فقال: { أليس قد صام رمضان بعده وصلى ..} : ٦ آلاف ركعة أو نحوها.. الخ- مما سيأتي عنه تجليةً ص ١١٠-

لكن .. ليس كل خلود حسن إلا لمن أَحسن!

قال ابن دريد:

إنمـــا المـــرء حـــديث بعـــده فكـــن حـــديثاً حســـناً لمـــن وعـــى

---

(١) .. بقوله: {وأن أردّ لأرذل العمر}، وإتمام هذا .. الوعيد ما جاء في الحديث – أن يهرم ويتمنى الموت.. فلا يجده: {اللهم أطل في عمره.. الخ}، ومن العقوبة: ﴿طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۝﴾(الأنبياء ٤٤).
حتى أنه يُتداول مثلٌ بين من ضامتهم أحوالهم المعيشية، (عايشين من قلّة الموت)! – أي تمنّياً له، .. ولا يلقونه!- وإن كنّا نُهينا عن هذا، انظر ما يأتي ص ٧٠-

وإلا فمن لا يعرف (فرعون)، وهامان، وأبا جهل وأميّة بن خلف.. أو شيخهم-.. وهو أعظم مثلا في هذا – (إبليس) وهل هناك أطول منه عمرا؟!

إذاً (الخلود) الحق.. والأمل المنشود- كما أوضحته في مادة "العجلان" ص ٣٠٩ فما بعدها-:

في أن يُبقي المرءُ لنفسه- وأن قصر عمره[١]- أثراً نافعاً وذكراً باقياً.. ورحلة ماجدة في الأذهان بما ترك،.. وخالدة في السّير بما أثـر.

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ (مريم ٥٠) : أي " الثناء الحسن " في جميع أهل الأديان[٢].

وذاك: حين يُنقش اسمُك في الأفئدة، وتبقى سيرتك في الخالدين، إن لم تكن على الألسنة فعلى الأقل في القلوب.. التي لا يمكن أن تُماري في هذا أبدا!

فالموت وقت الإنصاف بحق، فلا هناك من يخافك، أو يأتي خجلاً لمقامك، أو (قد) يُجامل لهدف ينشده[٣] من وراء صنيعه ذلك!

لأنه الذي ما بعده اتصال، فهو (الفراق) الذي ما بعده لقاء، والوداع الذي ما بعده عودة.

وكذا أشار الإمام أحمد للمبتدعة بقوله : (موعدنا يوم الجنائز)[٤].

---

(١) هل تعلم إن هناك من العلماء والأفذاذ الخالدين من مات ولم يبلغ الأربعين، كالإمام (النووي) رحمه الله - ت ٦٥٦هـ -، وأيضا حافظ بن أحمد الحكمي[*] حديثا، وللعلم فإن الشافعي وهذا.. للإضافة/ كان يُفتي وعمره خمسة عشر عاما (تهذيب التهذيب- ابن حجر - ٦/٢٤)- (*) انظر هامش (١) ص٧٩-

(٢) انظر (التفسير الوجيز) " د. شوقي ضيف"، ص٣٠٨ – و/علياً، أي : رفيعاً -

(٣) وقد غابت مصلحته – إن كان له مأرب – منك خلف شمس بَيْنِك (وانظر في ص٢٦).

(٤) بهذا .. قال "عائض القرني"- في (ابن باز) رحمه الله - :

" يوم الجنائز " أنت أكبر شاهدٍ للمفتـــري ، والعالم الربانـــي

.. على أن هذا ليس (دليلا) قاطعاً إلا إذا ما أطبق الحق على المجتمع، أقول بهذا.. / مستشهداً بحال الإمام (البخاري)[*]- رحمه الله- إذ لم يصلّ عليه سوى ثلاثة منهم خاله ، وذاك (لرفضه القول بخلق القرآن)!، وقال بما أجمع عليه السلف: (إن لفظه مخلوق، ومعناه قديم).

والعجيب أن هذا (المشهد) تكرر في عصرنا فالإمام "حسن البنا" يرحمه الله لم يصلّ عليه سوى والده وبعض أفراد أسرته من الإناث.

فالغالب أنه قد ينتكس فرد في أمّةٍ حيّة، فلا يجدون إلا بعضاً من خاصته.. وأرحامه رحمة به؛ ليُصلى عليه أحيانا، لكن .. وهذا قليل - : أن ينتكس المجموع .. فلا يجد الصالح من يُصلي عليه... إلا نزارا!

- (*)محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيره، المعروف بالبخاري – أمير المؤمنين بالحديث- صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله: (صحيح البخاري) وأشهر كتب رواية الحديث النبوي، توفي ٣٠/رمضان ٢٥٦هـ-

- (**) تحليل .. لا تعليل/ الإنسان الحاد والصريح، هو من النوع الذي يصبر على (المصائب الكبرى) التي يجعلها بينه وبين الله تعالى، وهذه حاله من حالات الرسل - عليهم السلام-، وكذا كبار العلماء الذين عانوا الشدائد والصعاب، جراء صراحتهم وحرصهم - كأحمد بن حنبل ومحمد بن نوح، والبخاري، وابن المسيب .. الخ-

و- أنا[١] -أتبنّى منهجاً في طرحي هذا (المؤلف) أُثبت فيه - ومن خلاله- مقصداً طالما رنوت إليه، وابتغيت من ورائه هدفاً.. أود لكل من يطلّع على (هذا)، إن لم يُحقّقه لنفسه، فعلى الأقل أن يزلفها إليه:

(استغفر الله) لشخص مضى..

- كذا بدأ (المتنبي) حمده بأحدهم، في أحد مراثيه -

فبين صرخة الوضع وأنّة (النّزع) تقع حيوات فارغة، وأُخرى مليئة! .. وكم مِن مُفارقٍ لا يترك فِراقهُ فراغاً[٢]، ولا يُثير حُزناً.

وفي المقابل: كم مِن ميّت تتعثر بموته منجزاتٌ تنفع الناس!

مما يُحسب (له) عمرٌ جديدٌ يستأنف الحضور[٣] بعد مفارقة الروح للجسد.

والتراث العربي مليء بالتفجّع والتأبين لصاحب المآثر الكبرى..[٤] التي يتركها مثل ذلك في أي موقع (كان يملئه).

خلاف من قال فيهم المولى ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ (الدخان ٢٩) .. لأنهم لم يذرعوها جهداً، ولم يزرعوها نفعاً .. بل إن منهم من كان كلٌّ عليها؟!

وإذا كان تعريف (العمرُ) : مدة العيش بين الولادة والوفاه، في معناه العام فإن في الإيجاز عنه أكثر جوازاً، كما في تعريف (د. يوسف الخوري) :

(العمر : آثار يبدعها الإنسان فيعصب بها جبين العصور، لتبقي صداحة بحياته، تُذيعها في الزمن الشمول، والكون الفسيح).

وإذْ يكون الموت يقيناً لا مفرّ منه، فإنه في الوقت ذاته فاصلاً بين حياتين، حياة الوجود الشخصي،وحياة الذكر الجميل الباقي[٥]، وإذا انقطع الميّت بفراق

---

(١) .. إن غالب الطرح الموشّح بضمير المتكلم، هو من قبيل: وقف الرأي المُلقى على قائله ، فتُحصر تبعاته عليه، ولا يُصرف لغيره!

(٢) أي : كما يقال (وجوده كعدمه)!!

(٣) كحال (سيد قطب)– رحمه الله – . أنظر : ص ٣٢ .

(٤) حتى .. أن أمير الشعراء (أحمد شوقي) أنشاء قصيدة مطوّلة، وسمها بـ : (الحوادث الكُبرى في وادي النيل).

(٥) فهو – لعمري – الخلود الحقيقي: حين تترك في الدنيا دويّاً.. يوصل للأذن صيتك، على مدى الآفاق.

جسده، فإنه .. وبأعماله يظلّ حاضراً - أو هكذا قيل في تعليل لـ (الخلود) الحقيقي- :

ثنـاء الفتـى يبقـي، ويفـى ثـراؤه فـلا تكسـب بالمـال شـيء سـوى الـذكر

فقـد أبلـت الأيـام كعبـاً وحاتمـاً وذكرهمـا غـض طـري إلى الحشـرِ

ومن المفروغ منه - أو من (اللجاجة)- القول بأن هذا المأمل لا يكفي .. أو قُل لا يُمكن بلوغه بالتمنّي ، أو .. الترجي بـ: (لعل) أو (عسى).. وغيرها من أدوات العاجز - كما في وصف الحديث[١] -

ولكن بـ (العمل) والمجاهدة للنفس، حتى تبلغ بها درجة : (اللّوامة)[٢] من خلال الإتهام لها دائماً بالتقصير، لكي تستفزّها إلى درجة أعلى، ومقام أرقى.

هذا أولاً، وثانياً: كل إمرء - كاتب أو غيره - يأمل بنفسه ، أو يصبو أن : **يأتي بما لم تأتِ به الأوائل**[٣].

وأجزم أني لو أسررت هذا، لستنتجه القاريء الممعن فيما يرى من طرح - سواء بهذا المؤلّف ، أو غيره-، وهنا أولّي (وجهتي) بهذا العمل.. فيما لا أحسبهُ بدعاً من (الفعل) مثلاً/ أن يَجمع الكاتب مقالات خاصة بموضوع (ما).. في كتاب.

---

(١) ..في قوله ﷺ { ..والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنّى على الله الأماني}.

(٢) وهي التي أقسم الله بها ﴿ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ (القيامة ٢..) .

(٣) عجز بيت لـ (المعري) - برغم خوفي أن أكون أتيت بعدهم بـ (علم) مُشتت!-

وقد نحى هذا النهج ثلّة من أشياعي (الفضلاء) قبلي ، وربما استحثاثاً بما أشار إليه الاديب (سعد الحميدين)[١] .. ما يكفيني مؤونة الإعتذار:

((أن يُقْدم الكاتب على جمع مقالات في "كتاب" .. سبق نشرها في مجلات أو جرائد ، فإن ذلك يعني: قناعته بما تحتوي عليه تلك المقالات من أفكار يجب أن تكون باقية أمام أعين المتلقين بشكل شبه استمراري، ذلك لكونها قد قُرئت عَبْر وسائل (النشر) لها بسرعة، أو أنها فاتت البعض، وكذلك يقينه بأن هذه المقالات ليست مرتّبة بزمن آني (مناسباتي) يفقدها مرور الوقت أهميتها.

ولذلك كان اللجوء إلى إصدارها في كتابٍ مستقل بعد عملية غربلة[٢] وتنسيق وتدقيق، يرى أنه الأفضل في عرضها لكي تُؤتي مفعولها المراد منها عند كتابتها..)).

وأتمم بـ/ وكذا أُكلها .. كل حين – أقصد كلما ما تُقرأ-

و.. لا ريب أن إعادة نشر مقالٍ ما سبق أن عُرض وفي صحيفة (سيّارة) من خلال ضمّة في (كتابٍ) يُعتدّ به، ومرجع يُعاد إليه، يمتاز عن غيره، سواء بالتخريج للنصوص، أو الإضافات التحسينية التي لابد منها، وكذا استدراكات وجدها أو تنبّه لها الكاتب (بعد) استقراء جلي، أو تمعّن لما نُشر.

---

(١) صحيفة (الرياض) عدد ١١٠٩٠ -

(٢) وهذا – مع مكمن الشاهد – : ما فعلته (هنا).

بل وتُحتّم على كاتبه التقييم.. لما يحتاج إليه: تصويباً أو تحديثاً، أو إضافة ألزمها التثبيت .. قبل ضمّه، وحال الإعادة- في (الإصدار) – وهذا ما ينسحب على كل مواد هذا (المؤلَّف)، وصاحبه (المؤلِّف)-

وقد توخيت - قدر الإمكان - أن أربط الشاهد بدليله، أو صاحبه حتى لا يظن بأني أتقوّل.. وحاشاً حساب القارىء المدرك ، لكن أخاطب شرائح شتى -.. فأُغلق المدخل سلفاً، حتى لا يُفتح باباً لزاعم-

.. وتأكيداً على أن كل المقالات[1] التي جُمعت هنا- وقد نُشرت بالصحف- قد تم مراجعتها.. والإضافة بما يجب أو يستوجب إتماماً أو تصحيحاً أو تعديلاً . وهذه سنّة الخيّرين، من قبلي، قال الأمام "الشافعي" موجزاً .. (أبى الله أن يكون كتاباً تاماً غير كتابه[2]) - وهذا.. من حسنات الإعادة على الكاتب نفسه، في المراجعة والتصحيح .. الخ-

ولعل[3] تلك حُجّة أتشفّع بها – ابتداءً – في نحلي هذا، أو القصد منه :

في إبقاء (صور) مَنْ أبَنْتُ.. عالقة في عقِب من بعدهم بالأذهان يُرجع لتحسّسها .. وأخذ النموذج من (أرشيفها) – كافٍ .. ووافٍ بإتمام الحجّة!-، وأيضاً.. سبب: في الدعاء[4] لأصحابها، عموماً ومن لدن ذويهم خصوصاً ..

---

(١) .. وهذا لا يقلل أو يُوهن من مقام ما نُشر، بقدر ما يُعزّزه (تخليداً)، .. حين خضع للمراجعة والتمحيص.

(٢) .. وقد راجع أحد مؤلفاته أكثر من ثلاثين مرّة.

(٣) .. لعل : أداة ترجّي – كـ : عسى -

(٤) أي: لأولئك، ولكل من إخترمتهم المنيةَ .. ، فلندعوا لهم فهم بحاجة- .. بل وألحّو بهذا قال ابن القيم: (إذا اجتمع على الإنسان : نفسه وقلبه، وصدقت ضرورته وفاقته، وقوي رجاؤه فلا يكاد يرد دعاؤه).

وقد كان - مع كل ذلك - من أحقيتهم مما تم إشتقاقه حول تلك الشخصيات وأهليتهم لبلوغ هذا (التأبين) في إغناء كهذه الصفحات .. مما ساعد على إيفاء هذا (المصنّف) [١] لكي يظهر في هذا، ورافداً - بإذن الله - .. لكل من ودّ الإطّلاعُ على صورٍ جليلةٍ.. لهذا الجيل .

.. وعسى [٢] عطاء (كهذا) يُعطي ويُبقي [٣] صورٌ عن (نماذج) من جيلنا.. لمن يأتي بعدنا ، فإن (منهم) – ولا أُبالغ – ما لا تكاد تستطيع الأقلام تسطيره.. مما تُكن له.

وقد أكون.. أو في داعي إصداري كتاب (هذا أبي) أني قدّمت شخصيّته (استثناءً)، لا .. لأنّه (أبي) فحسب، بل لأنه – فعلاً وبحيادية – يستحق الاستثناء توثيقاً.

وذاك: أنه شخصية (عامّه)، حسب تقديري، وتقدير كل من عرفه – رحمه الله و والدينا جميعاً–

و.. رجاءٌ آخر: أو أملٌ في (هذا) [٤] علّه دافعٌ يُغري ليُحسّن (الحيَّ) من نهجه نهجه لكي يخلد شخصه – مَنْ بعده - في أذهان من عرفه، وبخاصة خُلصاؤه

---

(١) .. والذي يرتكز – بالأصل – إلى : مصادر أصل المعلومات لهذا (المؤلف) : فقد إعتمدت أصل المقالات -.. والتي حواها هذا الكتاب - : من تلك التي سبق نشرها(*) بصحيفتي (الجزيرة) و (الرياض). وهي مشتقاتٌ مِمن أثّر أصحابها بالكاتب .مما لهم من مقام، وما تركوا .. من فرغ في القلوب.
- (*) .. انظر تأطيراً: هوامش عناوين تلك المواد -

(٢) عسى تفيد ضربين : الأول مؤكّد التحقق من الوقوع أو موجبة لا محالة، قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء : ٧٩) ، .. وأيضاً في قوله تعالى ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ (التحريم ٥). وكذا آية ٤٨ مريم،والآخر: الرجاء أي أن عساه يكون - بلوغ أمر ما- ، وأرمي بهذه الـ (عسى) الأولى.

(٣) وهنا توضيح عليّ أن أطرحه/ إن التجربة الوثائقية إن لم تتحول إلى تجربة ثقافية فإن هذا لا يعني عدم قدرتها على التحول إلى نص أدبي ، أي بُنيةٍ حكائية وصياغة سردية كاملة، فإنها تستطيع أن تُصبح نصّاً. - وانظر إلى قول " البير كامو" ص١٤٦-

(٤) أي : كهذا (المؤلف) - .. وكذا مؤلفٌ مُحاكي.. لهذا لأديبنا (المُقدّم) حمد القاضي بعنوان (الإنسان الذي لم يرحل) عن فقيد التربية والتعليم (حسن آل الشيخ) رحمه الله- ت ١٤٠٧هـ -
ومن نحل هذا الفعل، كالدكتور (عبد العزيز الخويطر) في "دمعة حرّى"، ومؤلف مُماثل لصاحب المعالي (د. علي بن إبراهيم النمله) بعنوان : " وبشر الصابرين.. كلمات في رجال تركوا أثراً".

أدركوا – بالفعل – : مكمن حُسن صفاته، وأن ذاك آتٍ من (صفاء) روحه ونقاء سريرته وجمال خصاله، فما ناله من بعدها.. إلا قطفاً لثمرٍ ما زَرَعَ في الأفئدة[١].

فللتأبين طرفان :

الأوّل: المؤبِّن .. والذي عليه الانصاف والموضوعية وعدم التعرّض إلا بمحاسن[٢] الميت (المسلم).

والآخر: المؤبَّن .. عليه - في حياته-: العمل وبذل الجهد، مع الهمة.. التي لا تكلّ ولا تملّ لبلوغ .. مقام (الذكر الحسن).

كما .. وأحسب لهذا المؤلّف من إحسانه – مع مضمونه – ما جاء في (حُسن الخاتمة) و (علامات الموت) تذكيراً أو تنبيهاً، هذا في جزئه الأول، وما تطرقت إليه في جزئه الآخر: عن (العلم) ومقامه وما لأهله، و(الجهاد) الذي هو من أعظم الشعائر الغائبة اليوم .. خلف لافتة الحرب على (الإرهاب) .. وفضلهم، وكذا (السلام) المزعُوم مع العدو والذي تحقق لدى من ولّو (همّة الأمّة) جبراً إليه، وهو استسلام، وأيضاً :(القرآن) كتاب ربنا وماله من حق.. على قلوبنا - على الأقل-.

ثم أخيراً (إحسان هذا الكتاب) النثري: أن أعطفني لأكتب عن أغلى البشر عليّ- باستثناء الرسول[٣] ﷺ- .. : (أُمّي) رحمه الله تعالى.

---

(١) وقد قال الأول : و.. مَن زرع الحبوب وما سقاها تـاوّه نادماً يوم الحصـاد

(٢) لحديث : { أذكروا محاسن موتاكم} - انظر في هامش (*) ص ٣٥-

(٣) .. وانظر في هامش ٢ ص٣٢.

مع .. الإشارة إلى ثلاثة أمور، **الأول**: تكرار الإحالات: تعميماً للفائدة[١]، وتذكير .. بما قد يغيب إيضاحه عمن يقراء بتعجّل، وهذا ما اشتققته لفنّي. .. فهل أصبت بإجتهادي، أم زدت في إرباكٍ للقارىء؟!، أمل أن لا يكون صنيعي بلغ به.. هذا.

كما وإني (حاولت) تبيان الكثير مما أحسبه مُفيداً[٢].. للقارىء.

والثاني: يأخذ البعض - ممن لم يسبروا غور العلم - عتباً .. على من يرنوا الإستشهاد بأقوال غير أهل الإسلام، وللرد على هذا : أن هذا مرام واسع، لكنه مقيّد بشرط مُهم وهو: موافقته للحق، وإليك أمثلة في بالتالي[٣] :

أولاً: جاء في القرآن الكريم، حين قالت ملكة سبأ ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾[النمل٣٤] عقب المولىَ تعالى - موافقا-: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[النمل٣٤].

ثانياً : جاء في السنة، حين سمع رسول الله ﷺ أبياتاً لـ (أمية ابن أبي الصلت الثقفي) .. في العقيدة ، قال ﷺ : { صدق لسانه، وكفر قلبه}.

.. وكذا قوله لأبي هريرة - عن الشيطان، وقد نصحه بأية الكرسي - : { صدقك وهو كذوب}.

وثالثاً: أن {الحِكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحق بها} رواه الترمذي وأبن ماجه، وأيضا استئناسا بحديث " ضعيف"[٤] : { ليتمم مكارم الأخلاق} تبنيا: للفضائل والخصال الحسنة.. التي لدى الآخرين- كما في إقراره ﷺ لـ (حلف الفضول) بالجاهلية - .

رابعاً : أن في هذا إقرار على أن من لديه فطرة سليمة يغلبها الحق ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[فصلت٥٣] .

خامساً: تجلية على أن ليس لدينا تعصباً، وأن الحق نأخذه كائن من كان قائله أو مشرب صاحبه، .. وقد قال علي ﷺ: (لا يُعرف الحق بالرجال، وإنما يُعرف الرجال بالحق)، كما .. و قال حاتم: " لا تنظر إلى من قال، بل إلى ما قال". وأتمّ ابن تيمية - رحمه الله- بـ: (لا يُستدل بأقوال الرجال، ولكن أقوال الرجال يستدل لها).

---

(١) .. كما سيأتي إيضاحاً ص ١٤٧ .

(٢) انظر عن (البركة) ص٦٣- ومواضع شتّى -

(٣) .. قد استحسن (د. صالح اللحيدان) مني هذا، وحضيت منه القبول فنشرها في صفحة يعدّها بالجزيرة معنونة بـ " يسألونك"- عدد ١٢٩٢٣-

(٤) بل إن هناك ما جرى مجرى الأثر عند غالب طلبة العلم، كـ (الأقربون أولى بالمعروف)، وهي حكمة جيدة.

والثالث: ما قد يُأخذ علي – أو على سمت طريقتي- في (تضمين أبيات من الشعر) لكني أرى أن الشعر .. له دور كبير في تقريب (المشاعر)، والتعبير عنها، فما ألجاء العرب إليه، إلا لأنهم أكثر من يُدرك أثره، ولهذا يُصدّر من أهل هذا بالقول (ليت شعري)، أي : ليته يسعفني ليخفف عني، وقد ذُكر عن أحد خلفاء بني العباس – حين تُوفي غلامٌ له – وسئل أهل بيته: من يحفظ قصيدة التهامي في ابنه ليعزّيه، ولما لم يجد أحد منهم يحفظها .. أرسل أسفه: (ما حُزني على فراق إبني بأقل حسرةٍ من جهلكم بقصيدة التهامي)!

أخيـرا:

.. قد يظن الواهن (مثلي) وحين ينتهي من مشروع ما- وإن أخذ منه ما أخذ-: أنه تخلص من عبء، أو إنزاح عن طريقه همٌ!

والحقيقة (هي) العكس[1]!

- كـــم تمنيـــتُ، ثـــم لمـــا حقـــق الله مُنـــيتي.. زاد همـــي -

وذاك أنه إنتقل إلى مشروع- أو (همٍّ)- أكبر من سابقه ، أي تراكماً للمسؤولية عندها، حتى يُصبح الحال.. مُحاكياً لما رناه "ابن زريق البغدادي" بقوله :

كأنّمـــا هـــو في حـــلٍ ومرتحـــل موكّـــل بفضـــاء الله يذرعـــه!

ولا غرو في هذا، بخاصة لدى ذوي الهِمم[2] – ولا أعدّ نفسي منهم[3] –

.. وهم : أولئك ممن مدح المولى حين خصّ بعض رُسله بـ ﴿ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ ﴾ (الأحقاف ٣٥)، ثم حثّ لهذه المنقبة، بـ: ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمران ١٨٦) ، أي : الذين لا تقعد بهم أمانيهم إلى منتهى ما بلغوا، وأنّ لنا – إلا ما شاء الله -: بلوغ هذا!، فاللهم يسرنا لليسرى وجنبنا العُسرى .. في الأولى والأخرى.

المؤلف

شوال/١٤٢٨هـ

---

(١) فـ (النجاح) مشوار وليس محطّة وصول، .. أو هو (علامة) بإذن الله على صواب المنهج وصحة الطريق.. لإتمامه.

(٢) انظر تقريباً لهذا، في كتاب (علوّ الهمه) لمحمد بن المقدّم .

(٣) .. لا تواضعاً، بلا حقيقةً أراها في نفسي.